روعة اللغة العربية (10)



د. يحيى صالح حسن دحامي الحبابي

إن اللغة العربية هي السفير المجيد في تطور ونماء الثقافة العربية وهي الوسيلة الناجعة لتداول الشعر بأشكاله وكياناته المتنوعة، وبناء على ذلك فالشعر العربي الفصيح، بما يمتاز به من فيض وإنتاجية، حاز مكانة مميزة وفارقة في الحياة العربية، وهو مثل ذلك عامل من عوامل القوة التي منحها للغة العربية، منذ أقدم العصور ومنذ ولادة اللغة العربية كان الشعر العربي الفصيح ولا يزال محتفظاً بالأهميةِ والمنزلةِ والمكانةِ العليا بين مكونات الأنواع الأدبية ومجالاتها المتعددة.

الشعر العربي الفصيح هو أقدم أنواع الأدب وأكثرها تناغماً والسبب في ذلك بلا شك هو المكانة السامية للغة العربية التي تحمل في ثناياها وبين أجنحتها أرهفُ المشاعرُ وأعذبُ الألحان، وفي الوقتِ نفسهِ يجد الناقدُ والباحثُ أن اللغة العربية تسامت وارتقت بالشعر، فهما – الشعر واللغة – يمثلان كيانان في جسدٍ واحدٍ، ولا يزال الشعر العربي الفصيح هو ديوان الملتقيات الثقافية بين جميع مكونات المجتمعات العربية كصرحٍ أدبيٍ خالدٍ خلود وديمومة الزمان، ولازلنا نذكر الأنواع والدوافع والاشكال الشعرية المتنوعة والمختلفة والمتطورة مع تطور أحداث المجتمعات والمسجلة في صفحات التاريخ عبر العصور، واللغة هي وسيلة الشعر والوريد النابض بفيض المشاعر الوجدانية والحسية لدى الشاعر.

عروة بن الورد العبسي – الشاعر الفارس الصعلوك النبيل – قيل عنه الكثير وسوف يقال عنه الكثير، تطرقنا في المقال السابق، (9)، الى البيت الشعري التالي:

*** عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ   وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ**

روعة اللغة العربية (10)

د. يحيى صالح حسن دحامي الحبابي

إن اللغة العربية هي السفير المجيد في تطور ونماء الثقافة العربية وهي الوسيلة الناجعة لتداول الشعر بأشكاله وكياناته المتنوعة، وبناء على ذلك فالشعر العربي الفصيح، بما يمتاز به من فيض وإنتاجية، حاز مكانة مميزة وفارقة في الحياة العربية، وهو مثل ذلك عامل من عوامل القوة التي منحها للغة العربية، منذ أقدم العصور ومنذ ولادة اللغة العربية كان الشعر العربي الفصيح ولا يزال محتفظاً بالأهميةِ والمنزلةِ والمكانةِ العليا بين مكونات الأنواع الأدبية ومجالاتها المتعددة.

الشعر العربي الفصيح هو أقدم أنواع الأدب وأكثرها تناغماً والسبب في ذلك بلا شك هو المكانة السامية للغة العربية التي تحمل في ثناياها وبين أجنحتها أرهفُ المشاعرُ وأعذبُ الألحان، وفي الوقتِ نفسهِ يجد الناقدُ والباحثُ أن اللغة العربية تسامت وارتقت بالشعر، فهما – الشعر واللغة – يمثلان كيانان في جسدٍ واحدٍ، ولا يزال الشعر العربي الفصيح هو ديوان الملتقيات الثقافية بين جميع مكونات المجتمعات العربية كصرحٍ أدبيٍ خالدٍ خلود وديمومة الزمان، ولازلنا نذكر الأنواع والدوافع والاشكال الشعرية المتنوعة والمختلفة والمتطورة مع تطور أحداث المجتمعات والمسجلة في صفحات التاريخ عبر العصور، واللغة هي وسيلة الشعر والوريد النابض بفيض المشاعر الوجدانية والحسية لدى الشاعر.

عروة بن الورد العبسي – الشاعر الفارس الصعلوك النبيل – قيل عنه الكثير وسوف يقال عنه الكثير، تطرقنا في المقال السابق، (9)، الى البيت الشعري التالي:

*** عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ   وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ**

والذي يمثل جزء أساسي وجوهري مع البيت الشعري لهذا المقال من قصيدة أصحاب الكنيف التي تطرقنا إليها في مقالات تسلسلية سابقة وهي:

* ألا إنّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم كما الناس لما أخصبوا وتمولوا

* وإنّي لَمدفوعٌ إليّ ولاؤهم بماوان إذ نمشي وإذ نتململُ

* وإذ ما يريح الحي صرماء جونة ينوسُ عليها رحلُها ما يحلّلُ

* موقَّعةُ الصَّفقينِ، حدباءُ، شارفٌ تُقَيَّدُ أحياناً لديهم وتُرحَلُ

* عليها من الوِلدانِ ما قد رأيتُمُ وتمشي، بجَنبيها، أراملُ عُيَّلُ

لا زلنا نتذكر واقعة أصحاب الكنيف التي نتجت عن مجموعة من الأبيات الخالدة لشاعرنا الفارس النبيل عروة بن الورد (أو كما عُرِفَ بعروةِ الصعاليك) الذي، من خلال هذه الأبيات، خاطب أصحابه الذين نكثوا عهد النبل معه مؤكدين بخل وشح وأنانية أنفسهم والتي هي ضد طباعه وخصاله، وقد علمنا أيضا من خلال الأبيات أن عروة كان، بعدلٍ ومرؤةٍ، يحصص رفاقهُ بكلِ ما يَغنمهُ ويُقدمهُ هبةً ومكرمةً لكلِ مَن هو في ضيقٍ وافتقارٍ، وهو بذلكَ يرسمُ لمن جاءَ بعدهُ أروع صور الإيثار والكرم، الذي يتجلى مشرقاً في هذه القصيدة ومن ذلك البيت التالي:

* وقلت لها: يا أُمَّ بيضاءَ فِتيَةٌ، طعامُهُمُ، من القُدورِ، المُعَجَّلُ (ديوان عروة، 1998 ص 92)

يمكن للمتأمل للبيت أعلاه استشعار القوة الصارخة والمدلول العميق لخطابه ونداؤه لكل فقير ومحتاج وعلى وجه الخصوص حرصه على إطعام الفقراء والمعوزين من الأطفال (الفتية) الذين هم غير قادرين على توفير احتياجاتهم بأنفسهم مثلهم مثل النساء، وهذه ميزة اكتسبها عروة في سعيهِ لتوفير الاحتياجات ليس لكل محتاج بدون تمييز للقدرة والقوة بل يمكن أن ندرك من خلال البيت الشعري أعلاه كمائن ومكنونات شاعرنا بن الورد وصفاته، ومثل ذلك الصفات التي كان يحرص على دعمها، وتخفيف معاناة الفقراء والضعفاء والمحتاجين بدون تملق أو تزيف أو تزييف.

وبالعودة للبيت الشعري نقف متعجبين من ثلاث حالات لمصطلح واحد فقط وهو مصلح (أم بيضاء)، الحالة الأول: دهشة حول براعة الشاعر في استخدام معانٍ عميقة الأثر وذات صور رمزية ومجازات وتخيلات عديدة، الحالة الثانية: دهشة اعجاب باللغة العربية السامية لما يكتنفها من معانٍ ومفردات متقاربة ومتباعدة ومرادفات وتضاد، إنها اللغة العربية، الحالة الثالثة: دهشة حول معنى وتفسير عبارة (أم بيضاء) نفسها،

وبالوقوف عند الحالة الأخيرة نجد معانٍ عديدةٍ لمعنى (أم بيضاء) ومن أجل سبر غور المعاني الخفية لمفردات اللغة العربية يحتاج الباحث إلى الغوص في صفحات وطيات المعاجم العربية، فمن خلالها نجد المعاني التالية: البَيْضاء تُطلقُ على الشمسِ لبياضها، وهذا واحد من المعاني الذي لا يدركه كثيرٌ من الناس، ومن معاني (بَيْضاءُ) الأرض التي لا نبات فيها فيقال أرض بيضاء ملساء على اعتبار أن الأرض المزروعة تغير لون الأرض وتكسوها بالخضرة وهو لون من ألوان الجمال والبهجة، ومعروف لدى المتعاملين بالعقار أن الأرض المهملة تسمى أرض بيضاء، وقيل مثل ذلك هي الأرض التي لم توطأً، فلينظر القارئ الكريم بعين الإعجاب الى جملة المعاني العديدة والتي تدل على روعة اللغة العربية، ولكن ما يهمنا هنا هو المعنى المقصود في هذا البيت الشعري الجميل حيث أن (أم بيضاء) ترمز الى القِدْرُ حيث تَعوَّدَ العرب أصحاب اللغة الفصحى الخالدة أن يطلقوا على الأشياء بأضدادها، فالضد يبين المراد ويعززه من خلال لفت الانتباه وجعل الفكر والعقل يدور حول المعنى العميق للمدلول، "وسميت بيضاء على عادة العرب من تسمية الشيء بضده، وذلك للسواد الغالب عليها" ينظر في 'المنى في المكنى والكنى' لسليمان نغميشي ص 469.

البيت الشعري بداءه الشاعر بحوار بينه وبين القدر الأسود الذي أطلق عليه (أم بيضاء) كأحد أسماء القدر الممتلئ بالطعام ومن حوله المنتظرين من الساغبين، وفي هذا السياق استخدم الشاعر أكثر من نوع أدبي خاص بالشعر ويدل ذلك على غزارة المعاني والمفردات لديه وأيضاُ إتقانه لفنون الشعر وأدواته، النوع الأول هو التشخيص حيث حول الشاعر القدر إلى شخصٍ أعطي ملكات الحياة وإمكانية التحدث، وهذا الشخص هو كيان يعطي بدون منة مثل الأم التي تعطي بسخاء وتجود حتى بنفسها، وثانيها استعارة مجازية تشير إلى القدر وتشير أيضاً إلى الأم.

الأم تعتبر من أهم أعمدة المجتمع، وما يظهره هذا البيت الشعري لعروة بن الورد الذي يوضح حاجة معيشية ضرورية في المجتمعات عموماً وفي المجتمع العربي على وجه الخصوص سيما في فترة ما قبل الإسلام، ويحكي التاريخ أن أوائل العرب كانوا ينظرون إلى الأم كرمز من رموز العطاء الخصب، فالأم هي ركن من أركان الحية، ومثالها مثل الحياة عند القدماء الذين ربطوا بعلاقة وثقى بين الأم (المرأة) والناقة والأرض الخصبة، وغالبا ما ارتبطت صورة الأم مع الناقة، فالناقة بفوائدها المختلفة في الشعر العربي الفصيح قبل الإسلام كانت تمثل ركن أساسي في الحياة للعربي لأنها كانت ترسم للناس الحاجة التي لا غنى عنها، فالناقة هي أحدى أهم الأنعام التي قال الله ﷻ عنها (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ

كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) سورة المؤمنون)، فالناقة ينطبق عليها جميع ما وصفه الله ﷻ في الآية الكريمة، والناقة ايضاً ومثلها الأم عند العرب قديما كما هي حديثاً تمثل قداسة وحرمة في وعيهم الفكري والذهني وآيتاً من آيات المفاهيم المجتمعية والعادات المتعارف عليها، والناقة في الشعر العربي كثر ذكر رسمها كالأم المرضع التي تمنح من قلبها وجسمها بحبٍ وجودٍ وبذلٍ.

وخلاصة البيت حوار من جانب واحد بين الشاعر وبين القدر الذي شَخَّصَهُ الشاعر (بأم بيضاء)، ويشير الشاعر إلى أن هناك الفتية المتلهفون للطعام، وطعامهم من هذه القدور التي ينتظرونها على عجلٍ، في إشارة الى حاجتهم الملحة لما تحتويه هذه القدور من اللحمِ كطعام يقيم حياتهم.

مزيدا من التحليل والتقييم يكتمل مع البيت التالي:

*** مضيغ من النيب المسان ومسخن   من الماء نعلوه بآخر من عل**

يتبع بإذن الله في المقال القادم